الإسلام في نظر المستشرقين

للدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

تصدى كثير من الباحثين الأوروبيين للإسلام بالبسط والشرح والتحليل والتوجيه والاستنباط ، ولكن عددا غير يسير من أولئك الباحثين قد أذعنوا لسلطة التعصب فاقتادتهم أهواء التحيز إلى طرق ملتوية مليئة بالأشواك ، يزيد بعدها عن العدالة والنزاهة بقدر ما يبعد أولئك العلماء في الخضوع لغاياتهم الخاصة ومنافعهم الفردية .

ولقد أضلت المطامع الحائلة هذا الفريق من المنصفين فجعلوا يتحاملون على الإسلام دون ذنب اقترفه أو جناية جناها ، وأخذوا يتصيدون - للكيد له والحط من شأنه - توافه الأمور التي قد تبدو على ظواهرها للوهلة الأولى أنها هنات ، ولكن التعمق في جميع مناحيها لا يلبث أن يمحو من النفوس ذلك الوهم السطحي السريع .

وأكثر من ذلك أن أولئك القوم ينقمون أحيانا على هذا الدين ما يثبت العقل السليم والمنطق القويم والمقياس الاجتماعي الصحيح أنه مبعث الإنسانية ومصدر سعادتها ، أو أنه هو المنقذ الوحيد لها من وهدتها .

ولا جرم أن هذه الشرذمة من الباحثين قد طبعت في هذا العصر بطابع الاستهانة والإهمال من جميع الذين يحترمون حكم العقل ويوقنون بأن النزاهة هي أولى بالإجلال وأدنى إلى الخلود .

وهناك فريق آخر من العلماء قد عرضوا للإسلام تحدق بهم النزاهة ، ويحف بهم نبل القصد ، ويحدوهم الأمل في الوصول إلى كشف بعض الحقائق المجهولة لدى بيئاتهم ، ولكنهم انزلقوا إلى حضيض الهفوات ، وهووا في سحيق الكبوات رغم نقاء نياتهم ، وسمو غاياتهم . وسر ذلك الإخفاق إما أن يكون هو الجهل بروح اللغة والقصور عن إدراك مراميها ، وإما الاعتماد على مصادر زائفة مليئة بالأباطيل

والأضاليل كما ألمعنا إلى ذلك مرارا .

وأياما كان ، فإن هذا الباحث الذى سنبدأ اليوم هنا ببسط آرائه عن الإسلام ، ونناقشها على ضوء المنطق حينا ، ونتحاكم وإياه فيها إلى التاريخ حينا آخر ، والذى يدعى « دينس سورا الأستاذ فى جامعة لندن ، وهو عالم من أفراد الفريق الأخير الذى ثبت لدينا حسن نيته بهيئة قاطعة ، بعد أن درسنا منتجاته ، وتعقبنا آراءه وأفكاره ، فألفينا أنه ينظر إلى الاسلام بنفس العين التى ينظر بها إلى المسيحية والاسرائيلية ، وأنه يستعمل فى حديثه عن القرآن نفس العبارات والصيغ التى يتحدث بها عن الانجيل والتوراة .

وقصارى القول فى هذا الشأن أنه إذا حاد عن محجة الصـــواب فيما يتعلق بالدين الحنيف ، فإن ذلك يكون من جانبه خطأ لاخبثا ، وجهلا لا شرا .

والآن إليك كيف ينظر إلى الاسلام فى كتابه « تاريخ الأديان »

الذى نشر فى سنة ١٩٣٣ ، ولكن قبل أن نعرض لبسط آراء هذا العالم ينبغى أن نقرر مبدئيا أنه يجب على كل باحث قبل أن يخوض فى شرح مذهب من المذاهب أو فى تحليل آراء عالم من العلماء ، أن يتبين قبل كل شىء المبادىء التى يؤسس عليها ذلك العالم دعائم مذهبه ليسير فى توجيهاته وأحكامه على ضوء المعرفة الصحيحة لما هو بصدده من آراء وأفكار .

ونحن إذا سايرنا هذا الناموس العلمى - ولا بد لنا من مسايرته - فإنه يتحتم علينا أن نسجل هنا أن هذا الباحث يصدر فى آرائه عن مبدأين أساسيين : أولهما أن تاريخ الأديان هو تاريخ لنموتينك الرغبتين البشريتين المتأصلتين فى نفوس أفراد الجنس جميعه ، وهما الحاجة إلى وجود إله ، والحاجة إلى الحياة بعد الموت الدنيوى ؛ وثانى هذين المبدأين : هو أننا الآن فى عصر علمى لايستطيع الناس فيه أن يقبلوا من دون الاله إلا ماتقدم إليهم التجربة والملاحظة الأدلة على صحته .

ونحن إذا قبلنا المبدأ الأول على أنه لازم ركزته الحكمة الالهية فى النفوس البشرية تعدها للتأليه إعدادا فطريا كى يفوق فى متانته جميع الاعدادات الاجتماعية ، لأن

العارض لايرقى فى الكمال إلى درجة المتأصل ، فإن الذى لاريب فيه هو أننا لانستطيع قبول المبدأ الثانى الذى صدر عنه هذا الباحث فى تفكيره ، لأنه ، فيما نرى ، خاطىء من أساسه ، إذ أنه يرمى إلى هدف خطير ، وهو إحلال مايدعوه بالعقل العلمى التجريبى محل العقل الانسانى فى ذاته ، أو العقل من حيث هو . ولا ريب أن هذا الرأى ـ فضلا عن أنه فج سطحى ـ هو إقرار لطغيان العلم التجريبى على كل ماعداه من جوانب الحياة الفكرية والروحية ، وفى هذا من الخطأ مالا يخفى على ذى لب حصيف ، إذ كيف [illegible] من لديه مسكة من العقل ، ذلك الدور الهائل الذى قام به الفكر البشرى [illegible] أثناء هذه الآلاف من السنين التى انسلخت من عمر الزمن قبل أن يرى العلم التجريبى نور الوجود .

أما الرأى المعتدل فى هذا الشأن ، فهو أنه إذا كان العلم التجريبى قد استولى على بعض جوانب العقل الانسانى فإن الذى لامشاحة فيه بحال هو أنه لم يستوعب كل جوانبه ، فضلا عن أنه يمحو كيانه الذاتى الأول ويستبدله بكيان جديد يدعى بالعقل العلمى الذى لايتلقى شيئا آتيا عن أى طريق آخر غير طريق الملاحظة والتجربة . وإنما الحق فى هذه النظرية هو أن الجانب العلمى من جوانب العقل البشرى الذاتى هو ملكة تنشأ فيه وتنمو كغيرها من الملكات ، لأنه كما أن الوجود المطلق أعظم كثيرا من الوجود المحدود الذى يدركه العلم التجريبى ، كذلك العقل المطلق أعظم من الملكة الخاصة بإدراك نتائج الملاحظة والتجربة .

ومهما يكن من شىء فإن الذى يبدو لنا جليا من روح هذا الباحث ، أنه واقعى النزعة ، تجريبى التفكير ، وتلك وجهة نظر تختلف فى أسسها ومراميها مع مبادىء جميع الديانات التى تقرر أن الاله لايناله الحس بحال من الأحوال ، وأنه مع ذلك أثبت الموجودات . وهذا يكفى لأن نعتبره عالما أجنبيا محايدا لا يروقه من الأديان إلا ماتشتمل عليه من مبادى خلقية نافعة ، أو قواعد اجتماعية مفيدة للإنسانية . وإذا كان الاسلام أكثر اشتمالا على هذه المبادىء القويمة ، وتلك الأسس المتينة . فقد كان من الطبيعى أن يظفر

لدى هـــذا النوع من العلماء بأعلى الدرجات ، إلا فى حالة الخطأ التى تحيد بهم عن الصراط المستقيم .

ومن آيات رجحان كفة الاسلام فى نظر أولئك العلماء المحايدين الذين لا يلتفتون إلا إلى الجوانب الخلقية والعمرانية من الدين ، أن هذا الباحث يبدأ حديثه عن الاسلام بقوله : « إن محمدا يكاد يكون هو الوحيد الذى نعرفه عن طريق التاريخ من بين عظماء مؤسسى الأديان ، إذ أن الخرافات لم تستطع أن تخفيه . . . وإن دين مواطنيه إبان ظهوره كان قد هوى إلى أدنى الدركات ، أو قل إنه كان لمما من بقايا عقائد بدائية قد تفككت عندما ارتقت الحياة الاجتماعية فى الأمم التى كانت تدين بها ولم يبق فيها راكدا سوى الدين . ولا غرو فقد كان العرب يعبدون الجن والأرواح التى تقطن الاحجار إلى جانب عدد من آلهة القبائل المختلفة . ولقد محا الاسلام هذا كله ولم يبق منه سوى الحجر الأسود ، فقد ظل فى موطن القداسة الجوهرية ، إذ وضعه محمد تحت حماية الخليل إبراهيم . ومن الممكن أن تكون هذه سياسة قصد بها التوفيق كما يمكن أن يكون ذلك ناشئا من احترام شخصى . . .

ونحن نرى أن هذا الباحث قد بدأ حديثه فى اعتدال واستقامة حينما كان الطريق أمامه واضحا معبدا ، ولكنه عندما وصل إلى الحجر الاسود كان الأفق قد تلبد بقاتم السحب ، فساد الظلام ، وسرعان ماضل صاحبنا الطريق فلم يستطع السير إلى الأمام ، ولا الرجوع إلى الخلف ، فوقف حائر اللب ، خائر القوى يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ويسلم نفسه للفروض والأوهام ، ويرسل طرفه باحثا عن الممكن تارة ، وعن المحتمل تارة أخرى ، ولكن عذره فى ذلك واضح ، وهو أن الحجر الأسود كاد - فى كثير من المواقف - يكون سببا فى تبلبل عقول بعض المسلمين ، وتزلزل عقائدهم لولا أن فوضوا الأمر فى شأنه إلى فاطر السماوات والأرض ، معلنين أنه حجر لا ينفع ولا يضر ، وأنه من السمعيات التى وجب علينا تنفيذها ، وعزبت عن عقولنا حكمتها . ولا شك أن فى هذا عذرا لا أجنى لا باحثا .

أما الإجابة المطلقة على هذا الاعتراض فهى أن الكمال هو أول مستلزمات

الألوهية ، وأن الكامل لا يتصل بالناقص اتصال رضى ووحى وإلهام واختيار للرسالة ، وهذا يستلزم صدق الرسول وبما أن هذا الرسول الصادق هو الذى أمر بتنفيذ هذا المظهر لأمرما ، وإخفاء حكمته لأمرما كذلك ، وبما أن هذا الأمر يمكن أن يؤول بكل شيء ماعدا الوثنية التى دارت بخلد ذلك المستشرق وأمثاله فإننا نستطيع أن نعلن أنه قديكون هو ما قاله المفسرون . ولا نريد أن نعيده هنا ، وقد يكون شيئا آخر رمزيا يرمى إلى غاية عالية خفيت على المحجوبين واتضحت أمام الملهمين ، وللحديث بقية .

الإمام القشيرى يصف الصوفية

« لقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره فهم الغياث للخلق والدائرون فى عموم أحوالهم مع الخلق بالحق . صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم إلى مجال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ، وندبهم للقيام بآداب العبودية ، وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف ، وتحققوا بماله سبحانه من التقليب والتصريف ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ، ونعت الانكسار ، ولم يتكلوا على ماحصل منهم من الأعمال ، أوعلى صفاتهم من الأحوال علماً منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ويختار ما يشاء من العبيد .

« ثوابه فضل . وعذابه حكم بعدل . وأمره قضاء فصل »